نظرات على القطع الآشورية

في متحف حلب

محمد كامل المهندس
محافظ متحف حلب

يضم متحف حلب عدداً كبيراً من القطع الأثرية الآشورية ، وهي على اختلاف أنواعها ، وتعدد المواد المصنوعة منها جديرة بالتأمل والدراسة ، فالنصب والتماثيل الحجرية ، والأواني الفخارية ، والحلي الذهبية ، والاسطوانات المنقوشة واللوحات المدهونة ، والأسود المنحوتة تؤلف كلها مجموعة يزهو بها متحف حلب لأنها تجمع في الحقيقة أكثر عناصر الفن الآشوري وتجسد تاريخ هذه الأمة التي شغلت ميدان السياسة والفتح قروناً عديدة .

وقد أردت أن تكون هذه النظرات والتأملات مبنية على اسس تاريخية وجغرافية ومنبثقة عن عنصر الشعب الذي طور قسما من الحضارة التي ورثها وابتكر قسما آخر وابدعه ، وعلى هذا الأساس لا بد من تقديم لمحة وجيزة عن الأرض التي عاش عليها هـــذا الشعب ، وعن علاقاته السياسية والعسكرية مع الأقوام المعاصرة وعن معتقداته الدينية ولغته وكتابته فكل

ذلك يصحح من نظرتنا إلى الفنون الآشورية ويجعلها أقرب الى الصواب فيما لو صرف النظر عن هذه العوامل الأساسية في تكوين الحضارة .

١ ـ **العامل الطبيعي** ـ آ ـ الأرض : إذا كان مهد الحضارات الأولى هي أحواض الأنهار كما هي الحالة في مصر والرافدين والغانج وغيرها فإننا نقول ان هـذه الحضارات بدأت عند مصب الأنهار وصعدت شيئاً فشيئاً نحو منبعها . فمملكة منفيس وحضارتها في وادي النيل ظهرت قبل طيبة بقرون ثم صعدت نحو النيل الأوسط فالأعلى حتى غزت بلاد الحبشة ذاتها . وحضارة الكلدانيين عرفت قبل حضارة الآشوريين كما سبقتها حضارة السومريين والأكاديين فانتقلت الحضارة من أور ولكاش إلى بابل ثم إلى نينوا فاعالي جبال ارمينيا ؛ ومما يؤيد صحة هذه النظرة طبيعة الارض ذاتها فكان الانسان الأول يلجأ إلى الارض السهلة والخصبة ليزرعها وبديهي ان الأرض قرب مصب الأنهـــار أسهل منها عند ينبوعه ، فدلتا مصر تتوفر فيها المياه والخصوبة والسهولة أكثر من الأراضي التي ينبع منهـا وكذلك الأمر في الرافدين . أما واسطة الانتقال فقد تكون التجارة أو الحروب أو اعتناق المذاهب الدينية أو كل هذه العوامل مجتمعة .

وإذا كانت البذور الأولى لحضارة ما بين النهرين قد تفتحت على شطآن الخليج العربي فانها نمت ورسخت في شمال البلاد وفي الأرض التي نسميها الجزيرة حيث يؤلف نهرا دجلة والفرات مع روافدهما محيطاً مائياً كافياً لاقامة حضارة مزدهرة ، ففي هذه البقعة بالذات توطن الآشوريون وأسسوا دولة وتركوا حضارة . ومن الملاحظ بأن الشعبين الكلداني والآشوري اللذين عاشا جنباً إلى جنب قروناً عديدة متحاربين أو متسالمين لم يندمجا في مواطنية واحدة ، وان كان ما نقوله نخالف لرأي هيرودوت الذي يعتبر بابل احدى مقاطعات آشور واعتقاده هذا ناتج عن اندماج الدولتين تحت لواء الحكم الفارسي في زمنه .

فطبيعة الأرض ذات نتائج ايجابية على فنون كل من الشعبين ، فأرض البابليين هي طمي تمتد من هيت حتى الخليج العربي وفيه يسير النهران ببطء شديد ، أما أرض الآشوريين فهي سهول وهضاب متموجة مرتفعة عن سطح البحر ، ولكل من الأرضين خصائص مخالفة للأخرى

أثرت في عقلية كل من الشعبين ، فأبقت الاستعارات الحضارية واضحة متميزة ، وأملت على الآشوريين توسعهم ، ففي الشرق اصطدموا بجبال زغروس المنيعة وفي الجنوب كانت المدن الكلدانية مكتظة بالسكان ، وفي الشمال جبال ارمينيا ، أما في الشمال الغربي حيث كانت القبائل الضاربة لا تؤلف دولة منيعة فقد سهل على الآشوريين التوطن على ضفاف الخابور ومن هنا تلقوا أيضاً التيارات الحضارية الآتية من غرب سوريا .

ب ـ الاقليم : وكما للحدود الجغرافية والأرض أثر في ابداع الفنون فقد كان للاقليم أيضاً أثره الفعّال في تنوع هذه الحضارة ، فدجلة والفرات يفيضان على أرض الرافدين كما يفيض النيل ، وإذا قيل ان مصر هي هبة النيل فإنه يجوز لنا أيضاً القول بأن ما بين الرافدين هو هبة دجلة والفرات ، رغم اختلاف الفيضان في النهرين اختلافاً جذرياً ، فالأول يفيض ببطء وينسحب ببطء بينما يفيض النهران في أوائل الربيع فيضاناً جارفاً تترتب عليه نتائج وخيمة في بعض الأحيان بالنسبة للقرى التي على ضفتيه ، ولكن مع ذلك يرسبان خيراً وبركة للبلاد التي يجتازانها ، وان كانا يملآن الحفر والهوارات بمياه تصبح آسنة ومصدراً لكثير من الأمراض . أما الهواء الذي يهب شتاء من أعالي جبال زغروس أو شمالاً من جبال ارمينيا فإنه يهبط الزئبق في الميزان الحراري إلى ما تحت الصفر حتى في جنوب البلاد ، بينما يصبح القيظ خانقاً في الجنوب ومحتملاً في الشمال صيفاً ، وعلى ضوء هذا الاقليم تنبت في البلاد زروع مختلفة من الفواكه والحبوب كما تنمو أشجار النخيل باسقة عالية وقد مثل النخيل والقصب وغيرهما على كثير من الشواهد الآشورية ، والاختام والاسطوانات .

٢ ـ العامل البشري : إذا صح ما يقوله علماء الطبيعة بأن العاملين الرئيسيين لكل حياة هما الحرارة والماء ، فإن هذين العاملين متوفران في جنوب الرافدين أكثر من أي مكان آخر منه ، وعلى هذا يمكننا مبدئياً القول بأن جنوب الرافدين قد سكن قبل شماله ، وبأن السكان في هذه المنطقة سرعان ما انتقلوا من حياة الصيد والرعي إلى حياة التوطن والزراعة وفي هذه الحياة وحدها يمكن غرس البذور الحضارية الأولى .

والتوراة يقص علينا في فصليه العاشر والحادي عشر أصل سكان هذه المنطقة حيث يقول انهم أتوا من الشرق وسكنوا بلاد شنعار ، ومن المعروف ان كلمة شنعار تعني بالعبرية بلاد الكلدانيين ، كما يجعل التوراة من جنوب الرافدين منطلقاً لأحفاد نوح لينساحوا في الأرض ويؤلفوا الدول واللهجات المختلفة ، « فمن كوش ولد نمرود الذي أصبح قوياً على الأرض » ومن هذه البقعة خرج آشور الذي شيد نينوا ، فالشعب الآشوري كالشعب الكلداني من أصل سامي ، والتوراة يذكر شعوباً كثيرة سكنت هـــذه المنطقة ويردها إلى أصل سامي ، فمن اور في بلاد الكلدان خرج طيره الذي أصبح جداً لليهود عن طريق ابراهيم ، ونمرود في الحقيقة ليس الا ابن كوش ،حفيد سام . وباختصار إن الوثائق لم ترتفع بنا حتى اليوم إلى أكثر من سام وان اللغة السامية هي التي كانت سائدة . فالآشوريون ساميون لغـة وكتابة وهيئة بشرية .

٣ ـ الكتابة : للكتابة أثر كبير على الفنون سواء من حيث النقش أو التصوير ، والكتابة الآشورية هي الكتابة المسماوية . وقد مرّت هذه الكتابة ؟ كالهيروغليفية في مرحلة التصوير ، فكانت الصور المعبرة خير وسيلة لتمرين أيدي الفنانين على الرسم والنحت والنقش ثم اضيف الى هذه الصور اشارات حلّت بالتدريج محلّ الصور واتخذت فيما بعد أشكالاً تشبه رؤوس المسامير أو بالأصح تشبه الزوايا ، ونحن لا ندري سبباً لماذا عمد الكتاب الى استخدام الزوايا في كتاباتهم ، فالشمس لديهم تمثل بمعين بدلاً من دائرة في الكتابة الهيروغليفية ، أغلب الظن ان اللجوء الى مثل هـــذه الكتابة ناتج(١) « عن ان الكتاب في بلاد الرافدين لم يستخدموا ورق البردي كما هو في مصر وانهم وجدوا في الخطوط المنحنية صعوبة في حفرها على الطين ، وقد انتشرت الكتابة المسمارية انتشاراً عظيما في المنطقة لكثرة المواد التي تكتب عليها ورخص ثمنها » .

٤ ـ العامل التاريخي : إذا تمكن شاروكين أو كما يسموه عادة صارغون ان يؤسس سلالة جديدة في نهاية القرن الثامن عشر ٧٢١ ـ ٧٠٤ ق م وان يخضع سوريا جميعها بعد أن تمكن

(١) Histoire de l'art dans l'antiquité, Assyrie : Perrot et Chipiez .

سلفه تغلات فلازر ان يصل إلى حوض الهندوس وهضاب ايران ، فان أحفاد صارغون سنحريب ، وآشور حدون ، وآشور بانيبال تمكنوا أن يخضعوا وادي النيل وان يجزؤوه الى امارات تابعة لهم ، وفي تاريخهم هذا كانوا مثال القسوة والبطش فمحوا كثيراً من المدن والأقوام ، ورحلوا عدداً كبيراً من القبائل والشعوب . ولكن إلى جانب هذا جدير بنا أن نعترف لهم ببناء القصور والمدن ففى احدى كتابات آشور حدون يفتخر بأنه بنى في كلدة وآشور عشرة قصور و (٣٦) معبداً كما جمع علماء الآثار من قصر آشور بانيبال « كويونجيك » مئات الرقم التي حفظت النصوص العلمية القديمة للكلدان ، ولا يزال المتحف البريطاني يفتخر بآلاف الرقم التي وجدت في مدينة أور والتي كانت مصنفة على رفوف حسب كل مادة علمية ففيها التاريخ والفلك واللغة والقوائم الزمنية .. الخ ، ونحن نلاحظ هذا التباين في الفنون الآشورية فالنصب التي تمثل حصار المدن والقتال . أو تمثل الجنود الآشوريين بعضلاتهم المفتولة ، أو الأسود الضارية التي تبعث الرعب في قلوب من يدخل قصورهم كل هذا ينبعث من تاريخ هذا الشعب الذي وضع نهاية لكثير من الدول والمدن التي كانت قائمة كمدينة بابل ، ودولة سامريا ، ودولة يهوذا وغيرها .

٥ — العامل الديني : قد تكون علاقة الفن بالديانة قديماً من أوثق العلاقات بسبب ما يتصوره الإنسان عن معبوده فكان المهندس يستلهم إبعاد معبده ، واتجاهاته من فكرته عن الهه ، وكذلك النحات والكاتب وغيره . ومما لا شك فيه بأن السحر والأرواح والطلاسم لعبت دوراً كبيراً في التفكير الديني للآشوريين فالشياطين والأرواح الشريرة مثلت في كثير من الأحيان برؤوس الوحوش وأجساد الإنسان وبأرجل ضخمة وذنب طويل ، وقد أوصلهم هذا التجسيد الى عبادة الأشياء الجامدة كالحجر والشجر ومن ثم لعب التجريد والتجسيد دوراً كبيراً في توجيه الفنون الآشورية فمثلت النجوم التي كانت قادرة على خلق الليل والنهار والضياء والظلمة ، ومثلت الآلهة على الأسطوانات والجعلان أو نحتت لها النصب وصنعت لها الدمى ، واختار الآشوريون في تمثيل آلهتهم أقوى شيء في الحيوانات ليتغلبوا على مصاعب الطبيعة ، وجسدوا بشيء من المنطق بعض أفكارهم المجردة فجاءت عشتار الالهة تقف عارية تحلب ثدييها لتخلد البقاء مما جعل اليونانيين يعمدون إلى استعارتها منهم .

بعد هذه المقدمة وقبل البحث في القطع الآشورية الأصلية أرى من الضروري التعرّض الى القطع العاجية في متحف حلب ففيها تأثيرات آشورية واضحة وقد ذهب بعض الباحثين الى اعتبارها آشورية .

القطع العاجية : لقد عثرت بعثة السيد تورو دانجان الى مدينة أرسلان طاش سنة ١٩٢٨ على عدد كبير من اللوحات العاجية التي كانت تزيّن سرير الملك الآرامي حزقيل ملك دمشق في القرن التاسع ق . م ، فنقل نصفها الى متحف حلب ، والنصف الآخر الى متحف اللوفر عملاً بالقوانين التي كانت مرعية زمن الانتداب الفرنسي .

ويعتبر بعض علماء الآثار أن هذه اللوحات العاجية من صنع آرامي وذلك لوجود الجملة الآتية على احدى هذه اللوحات [الى سيدنا حزقيل][١] وأعتقد أن هذه الجملة ان دلت على شيء فانما تدل على تاريخ صنع هذه اللوحات وتاريخ تقديمها الى الملك الآرامي لا على الفنانين الذين صنعوها . فمن المعروف تاريخياً ان الملك الآشوري [اداد نيراري] الذي خلف تقلات فلازر الثالث حاصر دمشق في الربع الأخير من القرن التاسع قبل الميلاد ولم يتمكن الملك الآرامي ابن حدد وهو ابن الملك حزقيل من تخفيف غضب الملك الآشوري إلا بتقديمه جزية ثمينة ضمت إلى جانب الذهب والفضة هذه اللوحات العاجية التي كانت توصع سرير أبيه حزقيل وإذا بحثنا في مواضيع هذه اللوحات العاجية وفي التأثيرات التي تظهر عليها وقارناها باللوحات التي عثرت عليها بعثة المتحف البريطاني إلى نمرود في الرافدين ، أو بلوحات سامريا في فلسطين لرأينا تشابهاً كلياً في المواضيع ، وتأثيرات تكاد تكون واحدة في جميع هذه القطع مما يوحي الينا بأن هذه القطع صنعت في معمل واحد وان صانعيها كانوا تجاراً ماهرين أرادوا ارضاء ذوق أكبر عدد ممكن من الملوك والأثرياء فركبوا مواضيع لطيفة تضم تأثيرات بابلية وآشورية ومصرية وايجية وقبرصية .

ففي اللوحة رقم (١) يظهر التأثير المصري واضحاً بولادة حوروس ويحيط به شخصان مصريان بوجهيها وتاجيها والناظر إلى اللوحة بشكل عام يراها مصرية خالصة ولكنه إذا تعمق

(١) Manuel d'archéologie orientale Contenau .

في التفاصيل ظهرت له التأثيرات الأخرى فالثياب المكشكشة سورية وزهرة اللوتس التي تحتضن حوروس هي من أساس سوري أيضاً .



لوحة رقم (١)

أما اللوحة رقم (٢) فهي مصرية خالصة من حيث الموضوع ولم يتمكن الفنان أن يدخل عليها أي تأثير غريب نظراً لبساطة الموضوع وأصالته .



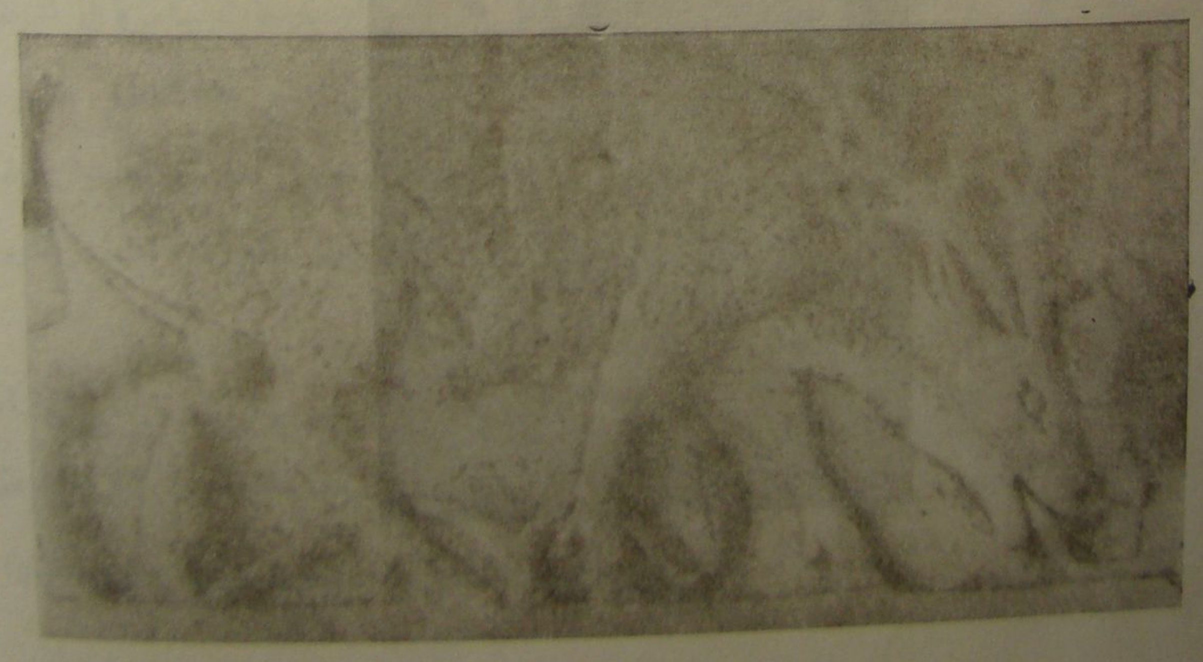
لوحة رقم (٢)

وإذا دققنا في اللوحة رقم (٣) نرى مزيجاً من التأثيرات ركبت بمهارة فائقة فالكبشان المتجابهان أمام الشجرة المقدسة هما من المواضيع البابلية والكبش هو رمز اله الشمس ، وجناح الكبش المدلى بين قائمتيه الأماميتين والمقسم إلى ثلاثة فروض هو من الطراز المصري وإذا أمعنا النظر في الجزء السفلي من شجرة النخيل نرى الأوراق تحصر مثلثاً في وسطها وهو فن قبرصي ، ومجمل الموضوع من حيث وجود شجرة في الوسط وحولها كبشان متناظران هو ارضاء لفكرة التثليث في اللوحة الواحدة في المفهوم السومري .



لوحة رقم (٣)

أما اللوحة رقم (٤) فهي سورية من حيث موضوعها ومن حيث فنها والواقعية التي تبدو عليها تجعلنا نقدر الفنان الذي تمكن أن ينحتها بهذا الشكل الدقيق فيظهر تفاصيل جسمها مع الثمر الذي بين قوائمها ولم يشأ الفنان هنا أيضاً أن يضيف عليها أي تأثير آخر مخافة تشويه بساطتها .



لوحة رقم (٤)

وفي اللوحة رقم (٥) يبدو التأثير الايجي والكريتي واضحاً ان في الموضوع أو في التعبير فالبقرة التي ترضع عجلها وتلحس خلفه هي من المواضيع الايجية الدارجة والتعبير الذي سكبه الفنان على موضوعه يعد ناجحاً الى ابعد حدود النجاح .



لوحة رقم (٥)

إن اللوحات التي عثر عليها في نمرود وفي سماريا لا تختلف عن هذه اللوحات التي عثر عليها في ارسلان طاش لا من حيث نوع العاج ولا من حيث المواضيع ذلك مما يجعلنا نعتقد اعتقاداً أكيداً بأن صانع هذه اللوحات واحد وأكبر الظن بأن الفينيقيين هم الذين كانوا يصنعونها فهم قوم تجار سكنوا الشاطىء السوري وتلقوا التأثيرات البحرية من ايجية وكريتية والتأثيرات الداخلية من بابلية وآشورية وغيرها وتمرسوا بالسياسة بحكم تنقلهم فيما وراء البحار فعرفوا التأثيرات المصرية في سوريا فركبوا هذه المواضيع بحكم موقعهم الجغرافي ووزعوها على هذا النطاق الواسع .

هذا ولما كانت هذه اللوحات على جانب عظيم من الاتقان وجب ان يكون فنانو ذلك العهد قد ورثوا هذه الصناعة عن أجيال ماضية وهذا ما أثبتته الحفريات في سوريا وفلسطين

فتحوتمس الثالث حينما غزا سوريا على اثر معركة ماجدو حصل على غنيمة ثمينة من (١) المفروشات المرصعة بالعاج تعود إلى القرن الثالث عشر ق . م ، وبالرغم من أن المواضيع التي ضمتها هذه اللوحات هي مواضيع مصرية كتمثيل الالـه [بس] الالـه المضحك من جهة والطارد للأرواح الشريرة من جهة ثانية ، فالموضوع مصري لا شك فيه ولكن صانعه سوري لما في فنه من واقعية ، وتمثيل الحيوانات المتصارعة في هذه اللوحات دليل آخر على سورية هذه اللوحات . وقد وجد على بعضها زهرة اللوتس تقدم من الملكة إلى الملك المنتصر علامة السعادة والحياة اما إذا وجدت هذه الزهرة مقلوبة كما هي منقوشة على تابوت حيرام فمعناها ان الحياة انقلبت من هذه الدنيا إلى الدنيا الآخرة وعلى هذا يمكن أن نعتبر لوحات ماجدو المصنوعة في سوريا هي النماذج الأولى للوحات نمرود وسماريا وارسلان طاش .

كما ان العاج الذي حصلت عليـــه بعثة اوغاريت سنة ١٠٥٢ ووجد محطماً على أرض يبلغ قطرها (٦) م وعلى احدى المفروشات وهي تحمل افريزاً منحوتاً بعرض متر وارتفاع نصف متر ويتألف من ثمان لوحات مرصوفة إلى جانب بعضها بعضاً لهو أيضاً دليل لا شك فيه على أن العاج كان يصنع في سوريا وفي منطقة رأس شمرة بالذات ، ففي اوغاريت هذه المدينة التجارية وجد ثراء ووجد فن ولم يبالغ [ريب ادا](٢) أمير جبيل حين كتب في أحـــد تقاريره إلى امانوفيس الرابع يطري له عظمة قصر اوغاريت بقوله « هو رحب والفن على جدرانه » يضم هذا الافريز صوراً متعددة ففيه الإلهة ترضع شابين متماثلين أي ان اللوحة كانت تستعمل كأيقونة دينية ثم انقلبت للزينة ، فهذان الشابان هما في الحقيقة شاب واحد تغذيه الإلهة بالدم الآلهي والفاوجدنا كذلك للتناظر كما هو الحال في العنزتين المتجابهتين أمام الشجرة المقدسة وقد وجد فيه بالاضافة إلى ذلك الزوجان الملكيان ، وحاملا التقدمة وفي الطرف المقابل مشهد للحياة العامة والملك يحاول اقتلاع عين أحد أعدائه الراكع أمامه . إذا دققنا في كل هذه اللوحات فإننا لا نجد

(١) Les ivoires, de Magiddo par. C. de Mortgenfeld .

(٢) Syria tome XXXI Page 16 .

أي تأثير ايجي أو ميسيني ولا أي تأثير آشوري أو بابلي أو حثي انما تأثيرات مصرية فرضتها العلاقات الكبرى بين الدولتين وان عهدها يعود إلى نهـــاية القرن الخامس عشر ق . م لوجود جعل إلى جانبها لأمونوفيس الثالث ولا شك في ان هذا الملك الذي طلب يد الشابة الميتانية [ني] وزع كثيراً من الجعلان التي تخلد اسمه بعيد اعتلائه العرش سنة ١٤٠٨ ق . م .

ولا بد أن نتساءل عن أصل هذا العاج فهل هو سوري الأصل أو مستورد من الهند أو افريقيا المركزان الرئيسيان لتجارة العاج ، انه يمكن البت في هذه القضية في الوقت الحاضر لما ذكرته المصادر الكثيرة عن وجود الفيـــلة في سوريا ، فقد ورد (١) في المصادر المصرية [بأن تحوتمس الثاني من السلالة الثامنة عشرة قد تلقى بين الهدايا التي قدمت اليه من شمال سوريا عدداً من الفيلة . كما يذكر امنمحمت وهو أحد ضباط تحوتمس الثالث بأن سيده قتل عدداً كبيراً من الفيلة في مقاطعة (ني) (٢) ثم يذكر ما قام به هو نفسه من أعمال حينما اصطاد مئة وعشرين فيلاً من أجل أنيابهم العاجية كما جهز الجيش بعدد آخر دفاعاً عن المملكة ، ويفتخر بأنه قطع خرطوم فيل ويده بينما كان جالساً هو في الماء بين صخرتين وبقي الفيل حياً فكافأه سيده بالذهب وخلع عليه الملابس] .

هذا وقد اكتشف فيل في قبر ركماير وزير تحوتمس الثالث والى جانبه شخص سومري ملتح يحمل نابي فيل كبيرين . كما اكتشفت بعثة متحف فيلادلفيا سنة ١٩٢٨ قطعة عبادية في المعبد الكنعاني في بيسان يعلوها رأس فيل وهي من القطع الثمينة في متحف فلسطين . وهناك عدد كبير من المصادر تذكر هدايا العاج المقدمة من ملوك سوريين إلى زملائهم في سوريا أو في خارجهـــا ففي عام ٨٨٥ ق م فكر ملك انات على الفرات أن يقابل الملك توكولتي اورتا بالهدايا والمعادن الثمينة فكان إلى جانب لوحات الذهب عرش من العاج ومناضد من نفس المادة . ولا نرى حاجة لذكر جميع المصادر التي ذكرت وجود الفيلة في سوريا فهي

(١) Early ivories from Samaria , By . Y . W . Crowfoot and Crace M Crowfoot .

(٢) غربي الفرات

كثيرة ومؤيدة بالوثائق الكتابية وقد يعود سبب انقراضها فيما بعد إلى الحملات القاسية التي كان يشنها عليها الملوك وطلاّب العاج ، وشبيه بذلك ما نراه اليوم من انقراض الغزلان في البلاد لما تلاقيه هذه الحيوانات من غارات عنيفة من قبل انسان اليوم .

ويمكن أن نلخص ما عرضناه بأن القطع العاجية التي عثر عليها في ارسلان طاش والتي يوجد نصفهـــا في متحف حلب هي قطع صنعت في سوريا من قبل سكان الساحل السوري أوغاريتيين أو فينيقيين ومن عاج سوري وما وجدت هذه التأثيرات الآشورية والمصرية وغيرها إلا ارضاء للأذواق والثقافات المختلفة في ضمن البلاد وخارجها طلباً للربح ونشراً للفن .

محمد كامل المهندس
محافظ متحف حلب